Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 38:4 (2003)

دعوة نوح ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم: أسسها و أساليبها

محمد أمين حسن محمد بني عامر

DMHL

قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيْهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِيْنَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوْفَانُ وَهُمْ ظَالِمُوْنَ** ﴾(١).

نسبه: هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ ـ وهو إدريس ـ ابن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام(٢).

مولده: كان مولده بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير وغيره. وقد ثبت في **صحيح البخاري** عن ابن عباس قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام". فإذا كان المراد بالقرن مائة سنة فتكون المدة بينهما ألف سنة. وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُوْنِ مِنْ بَعْدِ نُوْحٍ** ﴾(٣). وقوله: ﴿ **ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِيْنَ** ﴾(٤). وقوله: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ قَرْنٍ** ﴾(٥). وقوله عليه الصلاة والسلام "خير القرون قرني". فقد كان الجيل قبل نوح عليه السلام يعمرون الدهور الطويلة فعلى هذا يكون بين آدم ونوح عليهما السلام آلاف من السنين.

رسالته: بعث الله تعالى نوحاً عليه السلام إلى قومه عندما عُبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله تعالى رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول أهل الموقف يوم القيامة.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

جاء في الحديث المروي في الصحيحين أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "يجمع الله تعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد، فينظرهم الناظر ويسمعهم الداعي، وتدنوا منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لايطيقون ولا يتحملون، فيقول الناس ألا ترون ما أنتم عليه، ألا تنظرون من يشفع لكم، فيقول بعضهم لبعض، أبوكم آدم عليه السلام، فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله تعالى بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول آدم عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح عليه السلام، فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله تعالى عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عزّ وجل فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله: نفسي، نفسي ..." الخ(٦).

فهذا الحديث يدل على أن نوحاً عليه السلام هو أول الرسل إلى أهل الأرض وهذا ما عليه جمهور العلماء، ولكن ليس ذلك معنى أنه لم يسبقه بعثة أحد من الأنبياء قبله فشيث عليه السلام وإدريس عليه السلام وآدم عليه السلام أنبياء وكلهم قد بعثوا قبله، ولكنهم لم يكونوا رسلاً، فهو بهذا الاعتبار أول رسول إلى أهل الأرض، فهناك فرق بين الرسالة والنّبوّة كما هو معلوم(٧).

وقد أشار القرآن إلى رسالة نوح عليه السلام في آيات متعددة قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِيْ ضَلاَلٍ مُّبِيْنٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِيْ ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّيْ رَسُوْلٌ مِّنْ رَّبِّ الْعَالَمِيْنَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّيْ وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَآءكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ * فَكَذَّبُوْهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِيْنَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِيْنَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِيْنَ**﴾(٨). وأشار القرآن أيضاً إلى رسالته في سورة يونس، وسورة هود، وسورة الأنبياء، وسورة المؤمنون وسورة الشعراء، وسورة العنكبوت، وسورة الصافات، وسورة القمر، وسورة نوح، وقد جاء فيها:

﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوْحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّيْ لَكُمْ نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوْهُ وَأَطِيْعُوْنِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّنْ ذُنُوْبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ**

مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآء لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُوْنَ.... الخ﴾(٩) ـ وقد أشارت إلى ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوْثَ وَيَعُوْقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوْا كَثِيْرًا وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِيْنَ إِلاَّ ضَلاَلاً**﴾(١٠). وأشارت إلى مرتكزات دعوته والتي تتمثّل في:

أ) الإيمان بالله وحده والدعوة إلى عبادته دون سواه.

ب) الإيمان باليوم الآخر وما فيه ﴿**إِنِّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ**﴾.

ج) الوصية بالتقوى ﴿**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوْهُ وَأَطِيْعُوْنِ**﴾.

كما أشارت إلى موقف قومه من دعوته وخاصة الملأ منهم: ﴿**قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِيْ ضَلاَلٍ مُّبِيْنٍ**﴾. وأشارت إلى استعلاء الكفار على الدعوة في قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيْدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآء اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلآئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِيْ آبَآئِنَا الْأَوَّلِيْنَ**﴾(١١). وفي قوله تعالى: ﴿**قَالُوْا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُوْنَ**﴾(١٢). كما أشارت الآيات إلى قوة عزيمته في الدعوة وعظم صبره على أذى قومه وتوكله على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوْحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِيْ وَتَذْكِيْرِيْ بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُوْنِ**﴾(١٣). وأشارت إلى طول مكثه في الدعوة، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوْحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيْهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِيْنَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوْفَانُ وَهُمْ ظَالِمُوْنَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِيْنَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِيْنَ**﴾(١٤).

كما أشارت الآيات إلى قوة حجّته ﴿**مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُوْنَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيْهِنَّ نُوْرًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا...** ﴾ ...إلخ الآيات (١٥). وأشارت إلى عاقبة الكفر والكافرين ونجاة الإيمان والمؤمنين: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوْحٍ فَكَذَّبُوْا عَبْدَنَا وَقَالُوْا مَجْنُوْنٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّيْ مَغْلُوْبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَآء بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوْنًا فَالْتَقَى الْمَآء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ* وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِيْ بِأَعْيُنِنَا جَزَآء لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَآ آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِيْ وَنُذُرِ**﴾(١٦).

البيئة التي بعث فيها:

تشير الآيات القرآنية إلى أن نوحاً ـ عليه السلام ـ بُعث إلى قوم قد أشركوا بالله وعبدوا الأوثان والأصنام، واتخذوا آلهة من دون الله تعالى، اعتقدوا أنها تضر وتنفع، وتبصر وتسمع، وأنها تستطيع أن تجلب لهم الخير وتدفع عنهم الضر. وقد ذكر الطبري ـ رحمه الله ـ سبب انحرافهم وعبادتهم الأصنام فقال: كانوا قوماً صالحين من بني آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم و بهم يُسقون المطر فعبدوهم"(١٧). وقد ذكر القرآن الكريم آلهتهم فقال على لسان بعض أشرافهم: ﴿**وَقَالُوْا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوْثَ وَيَعُوْقَ وَنَسْرًا**﴾(١٨). ويبدوا أنه كان للقوم آلهة أخرى غير هذه الأصنام كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿**لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ**﴾. قيل: هي الكواكب السيارة، وبما أن هذه الكواكب تظهر ليلاً وتغيب نهاراً لذا اتخذوا الأصنام واسطة لتقربهم إلى آلهتهم. في هذه البيئة الكافرة أرسل الله نوحاً ـ عليه السلام ـ ليردهم إلى الحق والهدى، وينذرهم بطش الله وعقابه إن أصروا على الكفر به وعبادة غيره. وقد مكث فيهم نوح ـ عليه السلام ـ ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوْحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيْهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِيْنَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوْفَانُ وَهُمْ ظَالِمُوْنَ**﴾(١٩). واستعمل معهم أساليب الدعوة المتعددة ولكنهم أصروا على كفرهم وطغيانهم وما آمن معه إلا قليل منهم. قال تعالى: ﴿**وَمَآ آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيْلٌ**﴾. أما الأكثرون فقد تضجروا من دعوته وكذبوه وصموه بالجنون والكذب وحالوا بينه وبين تبليغ رسالته. ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوْحٍ فَكَذَّبُوْا عَبْدَنَا وَقَالُوْا مَجْنُوْنٌ وَازْدُجِرَ**﴾.

الشبهات التي أثاروها حول الدعوة والداعية، والمدعوين:

أ- **شبهاتهم حول الدعوة:**

إن الشبهات التي أثاروها حول الدعوة تتعلق بإتهامها بالابتداع والخروج عن مألوفات الآباء الأجداد مما يراد به تنفير الناس من الدعوة إلى الله وصدهم عن سبيله. فقال تعالى في حق قوم نوح: ﴿**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيْدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآء اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلآئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِيْ آبَآئِنَا الْأَوَّلِيْنَ**﴾(٢٠). فهم يزعمون أن نوحاً ـ عليه السلام ـ يريد اكتساب المنزلة العالية منهم ويحتجون بأنه بشر مثلهم لا يستحق بزعمهم أن يكون مبلغاً عن الله. ويزعمون بأنه بدعوته هذا يخرج عن عبادة الآباء والأجداد التي ألفوها وعاشوا عليها.

ب- **وأما شبهاتهم حول الداعية:**

فتتمثل بالطعن في ضخصه وسيرته وسلوكه وإلصاق التهم به، ورميه بالسفه والجهالة والضلالة والجنون والافتراء، إلى غير ذلك مما يكون المقصود منه تنفير الناس منه وعدم الثقة به.

بيان بعض هذه الشبهات التي ذكرها القرآن:

١) اتهام نوح ـ عليه السلام ـ بأنه إنسان يأكل ويشرب فكيف يكون نبياً من كان بشراً مثلهم فالنبي ـ في نظرهم ـ يجب أن يكون ملكاً لا بشراً، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوْحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّيْ لَكُمْ نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ * أَن لاَّ تَعْبُدُوْا إِلاَّ اللّهَ إِنِّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيْمٍ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِيْنَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِيْنَ** ﴾(٢١).

لقد أنكر القوم رسالة نوح ـ عليه السلام ـ ظناً منهم أن الله لا يصطفي من البشر رسلاً مستبعدين أن يخاطب الله أحداً من البشر بأي شأن من الشؤون ﴿ **مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا** ﴾. أي مساوياً لنا في البشرية، لا مزية لك علينا تكون بها نذيراً لنا نطيعك ونتبعك ونخضع لنبوتك ورسالتك. ومحور هذه الشبهة عندهم هو الظن بأن الرسالة والبشرية لا تجتمعان، وادعاء ذلك يكون موضع عجب واستغراب ويظهر هذا من جواب نوح ـ عليه السلام ـ بقوله ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَآءكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ**﴾(٢٢). فكان هذا موضع تعجب منهم، ولذلك أنكروه ولم يقرّوا به فوقع منهم التكذيب الذي دلّت عليه الواو في قوله (**أَوَعَجِبْتُمْ**) فهي العاطفة على شيء محذوف والتقدير أكذّبتم وعجبتم(٢٣). لقد جعلوا صفة البشرية حجّة لهم في عدم قبول الدعوة، وصدّ الناس عنها فهم يظنون أن الإنسان ليس مؤهلاً لحمل الرسالة، ولا يصلح لها، وذلك لتباعد ما بين الله والبشر فالله تعالى في غاية التقديس والتنزه، والبشر في غاية التعلق والتكدر فلا مناسبة بين الله والبشر(٢٤). أقول: أنهم قصروا نظرتهم إلى الإنسان على الجانب الظاهري والبشري وهو المقدار المشترك بين أبناء الجنس البشري، دون النظر إلى الجانب الروحي والاستعدادت الكامنة التي يتفاوت بها الناس ويتفاضلون، ومن هنا كان البدليل المقترح عندهم لحمل الرسالة هم الملائكة لنزاهتهم وقُدْسِيَّتِهم، كما أخبرنا القرآن الكريم: ﴿ **وَلَوْ شَآء اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلآئِكَةً** ﴾. أقول: إن حجة القوم واهية لأنهم استندوا على الظواهر دون النظر في الحقائق والجواهر، وذلك لغفلتهم عن معادن البشر، وجهلهم أن الإنسان خلق من عنصرين مادي وروحي. فينظرون من خلال المادة المحسوسة فلا يرون البشر إلا هذا الطين ولا يرون

التفاوت إلا فيما بين يديه من ظاهر متاع الحياة الدنيا، وواقع الأمر أن الله تعالى خلق الإنسان من طين، ونفخ فيه من روحه فقال: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّيْ خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِيْنٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِن رُّوحِيْ فَقَعُوْا لَهُ سَاجِدِيْنَ** ﴾(٢٥). فالإنسان مخلوق من مادة وروح فمن غلبت عليه الروح صار علوي الطبع ملائكياً، يصلح لدعوة نفسه وغيره ويترفع عن سفاسف الأمور. ومن غلبت عليه المادة صار سفلياً حيوانياً لا يصلح لهداية نفسه ولا لهداية غيره. وبهذا يظهر إمكان تحمّل البشر للرسالة وتبليغ الدعوة فهي لا تحتاج إلى مخلوق عجيب خارج عن حدود الجنس البشري، لكنها تحتاج إلى مواصفات خاصة ينبغي أن تتوفر في حامل الرسالة وهي العصمة والصدق والأمانة والتبليغ والفطانة وسلامة الحواس، والخلو من الأمراض المنفرة(٢٦). فالرسالة قضية إنذار وتحذير وتعليم وتربية خلقية فلا عجب أن يقوم بهذا الواجب رجلٌ. وأخيراً يأتي الجواب القاطع والحجة البيّنة من نوح لقومه فيخاطبهم قائلاً: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيْ وَآتَانِيْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوْهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُوْنَ** ﴾(٢٧).

٢) **اتهامهم له بالسّفَه والضلال كما قال تعالى في بيان ذلك:**

﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِيْ ضَلاَلٍ مُّبِيْنٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِيْ ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّيْ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِيْنَ** ﴾(٢٨). وتصور لنا هذه الآيات موقف الملأ من الدعوة وعدائهم للدعاة فهم اعتقدوا ونسَبوا إلى نوح الضلال فيما دعاهم إليه من التكليف والتوحيد والنبوّة والمعاد، وقد أجابهم نوح ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿ **يَا قَوْمِ لَيْسَ بِيْ ضَلاَلَةٌ** ﴾ ولم يقل ليس بي ضلال لأن نفي الضلالة أبلغ في عموم السلب، أي ليس بي نوع من أنواع الضلالة البتة. ثم وصف نفسه بأشرف الصفات وأجلها وهو كونه رسول رب العالمين ثم بيّن لهم المقصود من الرسالة وهما أمران:

الأول: تبليغها ـ **والثاني:** تقرير النصيحة، فقال: ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّيْ وَأَنْصَحُ لَكُمْ** ﴾(٢٩).

وفي هذا الموقف العدائي للدعوة الذي انقلبت فيه الموازين وبطلت الضوابط، وحكم الهوى ـ فالميزان ليس هو ميزان الله الذي لا ينحرف ولا يميل إنما هو ميزان الهوى ـ تطل الجاهلية لتصف دعاة الحق بالضلال والبعد عن الحق، فالجاهلية هي الجاهلية في كل زمان ومكان، فلا تتغيّر إلا الأشكال والظروف.

٣) اتهامهم إياه بالجنون ويقرر ذلك القرآن الكريم فيقول: ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوْحٍ فَكَذَّبُوْا عَبْدَنَا وَقَالُوْا مَجْنُوْنٌ وَازْدُجِرَ** ﴾(٣٠). وفي موضع آخر يخبرنا القرآن بذلك على لسانهم فيقول:

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوْا بِهِ حَتَّى حِيْنٍ ﴾(٣١). والجنون: أصله من الجنّ ـ بفتح الجيم وتشديد النون ـ وهو الستر عن الحاسة وأطلق على ذهاب العقل لأنه حائل بين العقل والنفس، أو لأن صاحبه أصيب بمسّ من الجن"(٣٢). إن هذه التهمة الباطلة تمثّل الحقد الذي كان يحمله قوم نوح ـ عليه السلام ـ نحوه إذ لو كان نوح ـ عليه السلام ـ مجنوناً كما يزعمون فكيف بهم يواجهونه بالمحاججة والمجادلة وهو غائب العقل. كما أنه لو كان مجنوناً كما يزعمون فكيف يضيرهم هذا المجنون حتى يزجروه ويهددوه، إنهم لو علموا أنه مجنون حقاً لأهملوه وسفهوه.

٤) اتهموه بكثرة الجدل والافتراء على الله وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **قَالُواْ يَا نُوْحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ** ﴾(٣٣).

٥) اتهموه بالكذب فقالوا له ولمن اتبعه: ﴿ **بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِيْنَ** ﴾(٣٤). وقد عبّروا بالظن ولكنهم أرادوا القطع واليقين وقد تكرر تكذيبهم له في مواطن متعددة وقد جاء في سورة الشعراء: ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوْحٍ الْمُرْسَلِيْنَ** ﴾(٣٥). وفي سورة الأعراف: ﴿ **فَكَذَّبُوْهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِيْنَ مَعَهُ** ﴾(٣٦). وفي سورة يونس: ﴿ **فَكَذَّبُوْهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ** ﴾(٣٧).

وللرد على شبهتهم هذه نقول:

أولاً: إن تكذيبهم له لم يكن مستنداً إلى دليلٍ ولا نظرٍ إذ قصارى ما في الأمر أنهم استبعدوا إرسال الرسل من قبل الله تعالى من البشر ولم يستعملوا عقولهم وينصتوا لكلام نوح ـ عليه السلام ـ حتى يفهموا الحقيقة، بل إنَّ الحسد غمر قلوبهم فأبعدهم عن الصواب.

ثانياً: إن التصديق والتكذيب للرسول يتوقف على حال الناقل للرسالة ولو فعلوا ذلك فإن سابقة نوح ـ عليه السلام ـ فيهم تلجمهم إلجاماً. وتدعوهم إلى اتباع دعوته، فهو القائل لهم ﴿ **إِنِّيْ لَكُمْ رَسُوْلٌ أَمِيْنَ** ﴾ ولو وجدوا فيه خيانة لردوا عليه.

ثالثاً: الجواب الوارد في قوله تعالى: ﴿ **أَمْ يَقُوْلُوْنَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِيْ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُوْنَ** ﴾(٣٨).

فالآية تتضمن حجة بليغة في تكذيبهم حيث إنها تتضمن أمرين:

الأول: أن يكون نوح ـ عليه السلام ـ قد افترى هذا الأمر من قبل نفسه.

والثاني: أن يكون نوح ـ عليه السلام ـ صادقاً وهم مُفتَرون على نوح بتكذيبهم إياه.

ويترتب على **الأمر الأول**: أن تصديقهم إياه لا يؤثر عليهم شيئاً بل إن تبعة الافتراء تقع على نوح ـ عليه السلام ـ وحده دون قومه. كما يترتب عليه أن تكذيبهم له ليس عليه دليل وعندها لا ينفعهم تكذيبهم شيئاً.

وأما **الأمر الثاني**: وهو أن يكون نوحاً ـ عليه السلام ـ صادقاً وهم مفترون فعند ذلك هم يتحملون تبعة تكذيبهم إياه ومخالفة أمر الله الذي دعاهم نوح ـ عليه السلام ـ إلى عبادته. وعندها يكون نوح ـ عليه السلام ـ بريئاً من إجرامهم لا يحمل من تبعة إعراضهم شيئاً.

٦) اتهموه بالعمل لمصلحة الخاصة دون المصلحة العامة:

وقد صدر هذا الاتهام من أشرافهم حيث قالوا ﴿ **يُرِيْدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ** ﴾. أي إنه يريد من وراء هذه الدعوة طلب الفضل على قومه من مال أو جاه أو شرف أو مكانة دنيوية. وهكذا شأن أعداء الإسلام يتهمون الدعاة بالمصلحة ومما يكذب هذا الادعاء ما يلي:

١- شفقة نوح ـ عليه السلام ـ على قومه وحرصه على هدايتهم، وتلطفه في خطابهم وصبره على أذاهم.

٢- ثباته على دعوته زمناً طويلاً دون تردد أو مهادنة أو مداهنة، وصلابته في دفاعه عن الحق، ووضوح المبدأ دون اعوجاج ولا التواء في الطريق، وبيان الغاية من الدعوة والهدف الذي يرمي إليه ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ** ﴾.

٣- عدم طلب الأجر على الدعوة فقد جاء على لسانه قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ** ﴾(٣٩). وقوله تعالى: ﴿ **وَيَا قَوْمِ لآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ** ﴾(٤٠). وقوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِيْنَ** ﴾(٤١).

٤- إخلاص النصيحة لهم: ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّيْ وَأَنْصَحُ لَكُمْ** ﴾.

وأما الشبهات التي أثاروها حول المدعوين:

فيتمثل هذا النوع بإظهار الحرص على مصالحهم وملتهم ودين آبائهم، والحفاظ على نعيمهم وحياتهم المطمئنة، مما يقصد به إثارة حماس الناس ضد الدعاة إلى الله، كما يتمثّل بأن الذين اتبعوه هم المستضعفون، ويقصدون بذلك الفقراء من العمال والمزارعين، وأصحاب المهن الوضيعة وهؤلاء ـ في نظرهم ـ قد اتبعوا نوحاً دون رَوِيّة ولا تفكير، وهم ليسوا من ذوي الفضل. قال تعالى على لسان الملأ من

قوم نوح ـ عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِيْنَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِيْنَ﴾(٤٢). وفي سورة الشعراء قالوا له: ﴿قَالُوْآ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُوْنَ﴾(٤٣). وقد عَدُّوا هذه الحجة الواهية مستنداً لهم في رد دعوة نوح ـ عليه السلام ـ وعدم قبولها، فلسان حالهم يقول لنوح: لو كنت صادقاً في دعوتك لاتبعك الأكياس والأشراف من الناس، وأما هؤلاء الأراذل فلا عبرة بإتباعهم لك، إذ ليس لهم رزانة عقل ولا إصابة رأي(٤٤). إن الدافع لهم على هذا كله هو داء الكبر الذي ينشأ منه بطر الحق وغمط الناس، والأنفة من الاجتماع والمساواة بالضعفاء، وذاك أمر يرفضه الإيمان وكأن لسان حالهم يقول لنوح: لو طردتهم لم يكن لنا عذر في التخلف عنك ولا مانع من إتباعك، وهذا يشبه حال قريش حين طلبت من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إقصاء صهيب وبلال وعمار ـ رضي الله تعالى عنهم ـ .

إن الناظر في تاريخ الدعوات السماوية يجد أن غالب أتباعها من الضعفاء والمساكين، والسبب في مبادرتهم في قبول الدعوة عدم وجود الموانع لديهم التي تمنعهم من قبول الدعوة ـ مثل: الكبر، وحب الرياسة، والجهالة في الدين.

وعندما نعرض هذه الشبهة على الميزان الحق نجد أنها شبهة باطلة من أصلها، حيث رد القرآن عليها بقوله على لسان نبيّ الله نوح ـ عليه السلام:

١- ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِيْ بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾ أي لم أكلف العلم بأعمالهم من الحرف والصناعات الدنية التي تجعلهم في نظركم من الأراذل فإنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار به، لا بالحرف والصنائع.

٢- ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّيْ لَوْ تَشْعُرُوْنَ﴾ أي بمعنى أن الله يحاسبهم على إيمانهم، لا على حرفهم وصناعاتهم، فلو كنتم تشعرون بذلك وعلمتموه ما عبتم عليهم حرفهم ولا فقرهم.

٣- قوله ﴿وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ ليس من شأني ولا بالذي يقع منيّ أن أطرد هؤلاء وقد دعوتهم إلى الإيمان فاستجابوا وذلك قطعاً لطمع السادة عن الاستجابة لهذا الطلب المخالف لحقيقة هذه الدعوة التي تأمر بتقريب من آمن وتكريمه على الكافر مهما اختلفت موازين الدنيا، ثم قال لهم: ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ﴾. أي عملي وواجبي هو إنذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصي سواء كانوا من الأغنياء أو من الفقراء. فلا علاقة لي بفقرهم أو غناهم إنما علاقتي بهم أن أدعوهم إلى الإيمان.

ثم قال لهم ﴿**وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنَّهُم مُّلاَقُوْا رَبِّهِمْ**﴾: أي: كيف أطردهم وهم ملاقوا ربهم فيخاصمون من طردهم عنده ويشكونني إليه فيأخذهم حقهم ممن ظلمهم وطردهم بلا ذنب اقترفوه فيقتص لهم. ثم استدرك عليهم نوح ـ عليه السلام ـ قائلاً لهم: ﴿**وَلَكِنِّيْ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُوْنَ**﴾. أي أن سبب جعل إتباع هذه الطبقة مانعاً من قبول الإيمان، ثم إنَّ طلب طردهم هو الجهل المطلق بعينه، جهلهم لحقيقة الإيمان وجهلهم بلقاء الله، ثم جهلهم الميزان الذي يوزن به الرجال فيظنون الرفعة بالمال والجاه وليس الأمر كذلك.

ثم تبيّن لهم شناعة طلبهم من حلول سخط الله ونعمته قائلاً: ﴿**وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِيْ مِنَ اللّهِ إِنْ طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُوْنَ**﴾ أي من يدفع عني غضب الله وسخطه إن استجبت لطلبكم وهو ظلم قبيح.

الأسس التي بنى عليها نوح عليه السلام دعوته:

يمكن لنا أن نلخّص الأسس التي أقام نوح عليه السلام دعوته عليها بما يلي:

١- بنى دعوته على أساس الحجة والبرهان.

٢- قامت دعوة نوح ـ عليه السلام ـ على أساس الوضوح التام.

٣- قامت دعوة نوح ـ عليه السلام ـ على الأسلوب الحكيم والسياسة الحكيمة.

٤- قامت دعوة نوح ـ عليه السلام ـ على الأدب والخلق الرفيع.

الحجّة الأولى: الحجّة والبرهان في دعوة نوح ـ عليه السلام: أقام نوح ـ عليه السلام ـ دعوته على الآيات البيّنات والحجج الواضحات المحكمات، فقد اعتمد في تبليغها على ما يتقبّله العقل السليم، ولم يعتمد على الخوارق بل كان يوجه العقول إلى الحقائق ويدفعها إلى التأمل بالكون علويّه وسفليّه، ففي كل شيء له آية ناطقة تدل على وحدانيته وقدرته وأنه هو المستحق للعبادة دون سواه، وقد عاب التقليد وذم المقلدين فجعل العقل حكماً والبرهان أساساً وفيما يلي أقدّم موجزاً للحجج التي أقام عليها دعوته والتي وردت في سورة نوح.

١) قوله تعالى على لسان نوح ـ عليه السلام: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوْا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيْنَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾. هذه الحجة خاطب فيها نوح ـ عليه السلام ـ عقول قومه وأثار عاطفتهم ووجدانهم واستفز نفوسهم من أعماقها، وراعى أحوالهم لأن مراعاة الحال لها أكثر الأثر في قبول الدعوة، وقد اغتنم نوح عليه السلام

الحالة التي صار إليها القوم فقد ذكر المفسرون(٤٥): "إن قوم نوح لما كذّبوه منع الله تعالى عنهم المطر من السماء، وعقَّم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلكت أموالهم ومواشيهم وزروعهم، فصاروا إلى نوح ـ عليه السلام ـ واستغاثوا به، ولا شك أن الحاجة تدفعهم إلى طلب ما يسدها، فكانت فرصة سانحة لنوح ـ عليه السلام ـ ليوجههم إلى ربهم الذي بيده الأمر كله، فهو القادر على كشف الضر وإزالة ما هم به من الغم، إن تابوا وانتهوا عمَّا هم عليه من الكفر والضلال".

وعندما ندقق النظر في الآية نلمس أموراً:

أ) قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**﴾ بصيغة المبالغة واصفةً حالهم التي كانوا عليها من طول مكثهم على الباطل، حتى لا يقع اليأس في قلوبهم من عدم غفران ذنوبهم، وقد أضاف الضمير إلى الله حتى يحرك دواعي الاستغفار في نفوسهم.

ب) قوله تعالى: ﴿**يُرْسِلِ السَّمَآء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيْنَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾. وفيه مراعاة لحالهم التي كانوا عليها من حب الدنيا والحرص عليها، فقد دعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يجبونها فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقَهم الله تعالى الخصبَ ودفع عنهم ما هم فيه من الشدة(٤٦). فقال: ﴿**يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيْنَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾ أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعمتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء وأنبت لكم من بركات الأرض وأنبت لكم الزرع وأدرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين أي أعطاكم الأموال وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها(٤٧).

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿**مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُوْنَ لِلَّهِ وَقَارًا**﴾. بعد صدود قوم نوح ـ عليه السلام ـ عن الإيمان خاطبهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري وهو أوقع في النفس من الأمر، وفيه إثارة للعقل إلى أمر ينبغي أن لا يكون، واستهجان لوقوعه وإنكار له. فذكر لهم اسم الجلالة الذي فيه من التربية ـ لمهابة في النفس ـ ما لا يخفى، وهو حقيق بالتعظيم والتوقير والخوف منه. فقال لهم: كيف لا يقع منكم التعظيم لله والخوف والرهبة منه جل وعلا؟! وما هو السبب الحامل لكم على هذه الحال. قال ابن عباس: "ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته"(٤٨). وهو الحقيق سبحانه بكل تعظيم وتوقير فهو الله المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص. وفي هذا لفت للعقول، وتنبيه للنفوس لتعظيم خالقها ومدبر أمرها.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا**﴾. أي: ما هو السبب المانع لكم من تعظيم الله العظيم الشأن والحال تقتضي ضد ذلك فهو الذي خلقكم أطواراً، نطفه ... مضغه ... علقه. ويعتبر هذا من أقوى الحجج الدافعة إلى الإيمان فهي تحتوي على الأمور التالية:

١- أن الله تعالى هو الخالق لكم لا هذه الأصنام التي تعبدونها، والخالق لا بد أن يتصف بصفات الكمال كالعلم والقدرة والإراده وغيرها، وكل ذلك حامل على التعظيم والطاعة له والانقياد لأمره.

٢- إنهم مخلوقون، ومن أخص صفات المخلوق، العجز والافتقار وهذا يدفعهم إلى استمداد العون من الله، مما يوجب عليهم الخضوع لجلاله، وعبادته دون غيره.

٣- تمكين ذلك في النفس من خلال التنبيه على دقيق صنع الله تعالى في الإنسان ذاته، وهو يشاهد ذلك ويدركه تقديراً لا يطغى طور على طور ولا يسبقه ويتأخر عنه، خلقكم طوراً نطفه، وطوراً علقه، وطوراً مضغه إلى سائر الأحوال العجيبة. وقد اختار لهم نوح ـ عليه السلام ـ هذا الدليل الدافع للإنسان إلى التأمل في حقيقة نفسه، واصل خلقته، وكيفية نشأته وفي ذلك حكمة لاقناع العقل بالحقيقة التي ترتكز عليها نشأة هذا الوجود.

٤- **الحجة الرابعة** قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا**﴾: وفي ذلك تنبيه لهم إلى دلائل قدرة الله ووحدانيته والتي تنتشر في هذا الكون الواسع علوية وسفلية. وصدق من قال:

فانظر إلى نفسك ثم انتقل ..... للعالم العلوي ثم السفلي

تجد به صنعاً بديع الحكم ..... لكن به قام دليل العدم(٤٩)

فيقول لهم: ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته وتنظروا نظر اعتبار، وتفكر وتدبر، كيف أن الله العظيم الجليل خلق سبع سموات سماء فوق سماء متطابقة بعضها فوق بعض وهي في غاية الإبداع والإتقان.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا**﴾. أي جعل القمر في السماء الدنيا منوراً لوجه الأرض في ظلمة الليل. وجعل الشمس مصباحاً يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم، ولما كان نور الشمس أشد وأتم، وأكمل في الانتفاع من نور القمر، عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره(٥٠).

الحجة السادسة: قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا**﴾. فبعد أن أقام الحجة على وجود الله من الكون انتقل إلى الأنفس فأقام الأدلة الواضحة على عظمة الله تعالى وقدرته. والمعنى:

إن الله تعالى خلقكم وأنشاكم من الأرض كما يخرج النبات. قال المفسرون: لما كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض، كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض، فلذا سمي خلقهم وإنشاءهم إنباتاً، أو يكون ذلك إشارة إلى خلق آدم ـ عليه السلام ـ حيث خلق من تراب الأرض، ثم جاءت منه ذريته، فصح نسبتهم إلى أنهم أنبتوا من الأرض(٥١).

الحجة السابعة: قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ يُعِيْدُكُمْ فِيْهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا** ﴾. إن الإعادة في الأرض بعد الإنبات منها أمر لا ينكرونه فهم يشاهدون ذلك ويباشرونه بأيديهم عند دفن الأموات في باطن الأرض. فهم يشاهدون ذلك في آبائهم وأجدادهم، فليس ذلك موضع تكذيب منهم ولا إنكار فالحس فيه شاهد والتجربة برهان. ولكنهم يكذبون ويتعجبون من العودة إلى الحياة بعد المصير إلى التراب وهي قضية إخراجهم من الأرض بعد إعادتهم فيها. فقطع عليهم هذا الاستغراب بالاستدلال بالنشأة الأولى على الإعادة، فالقادر على الإنشاء من العدم قادر على إعادة الخلق. والذي يطالع القرآن الكريم يجده يستدل في مواضع كثيرة بالخلق الأول، والقدرة على الانشاء على اليوم الآخر والبعث بعد الموت منها قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِيْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ** ﴾(٥٢). ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيْمٌ * قُلْ يُحْيِيْهَا الَّذِيْ أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيْمٌ** ﴾(٥٣). إن الإيمان بالله وقدرته وعظمته هو ركيزة الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور.

الحجة الثامنة: قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوْا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا** ﴾(٥٤). أي جعلها فسيحة ممتدة ممهّدة لكم تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه، وقد شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها، أي لتسلكوا في الأرض طرقاً واسعة في أسفاركم وتقلكم في أرجائها، وقد ذلل الله الأرض للإنسان بكل ما فيها من ماء وهواء وجبال وأودية وحجارة وتراب.

الوضوح التام في دعوة نوح ـ عليه السلام ـ:

إن الذي يمعن النظر في دعوة نوح ـ عليه السلام ـ يجد أنها قامت على الوضوح التام في أصولها وقواعدها، وفي منابعها وأهدافها وغاياتها. فقد قامت على التوحيد المطلق لله وحده قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوْحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ** ﴾(٥٥). وقامت على إخلاص العبادة له دون سواه لأنه هو المستحق فقال لقومه: ﴿ **يَا قَوْمِ**

اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾. كما دعت إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه فقال لهم: ﴿**إِنِّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ﴾** وفي آية أخرى ﴿**إِنِّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيْمٍ﴾**. كما دعت إلى التمسك بالفضائل والابتعاد عن الرذائل فقال مخاطباً لقومه ﴿**أَنِ اعْبُدُوْا اللَّهَ وَاتَّقُوْهُ وَأَطِيْعُوْنِ﴾**. وثبت نوح ـ عليه السلام ـ على أصول دعوته حتى النهاية التي تم فيها الفصل بينه وبين قومه.

٣) الأسلوب الحكيم والسياسة الحكيمة والأدب السامي:

قامت دعوة نوح ـ عليه السلام ـ على الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن وتظهر حكمة نوح ـ عليه السلام ـ في:

أ- التلطف في الخطاب والترفق بالدعوة: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيْ وَآتَانِيْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوْهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُوْنَ﴾**.

ب- عدم التجريح والبعد عن الإساءة إليهم ومناداتهم بما يحبون.

ج- الحرص والشفقة عليهم والعمل على إنقاذهم حيث خاطبهم قائلاً: ﴿**إِنِّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ﴾** وقال لهم ﴿**إِنِّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيْمٍ﴾**. وقال: ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّيْ وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ﴾**. زيادةً في التلطف بقومه والإشفاق عليهم لم يكتف بتبليغ الرسالة إليهم وإنما صاحب ذلك إخلاص النصيحة لهم، وكلما ازداد لهم نصحاً ازدادوا له عناداً، وكلما ذكّرهم بالله زادوا ضلالاً وفساداً، وضلوا في طريق الضلال سائرين لا يلتفتون إلى دعوة نوح ـ عليه السلام ـ ولا يبالون بتحذيره وإنذاره، وقد أقام بينهم تسعمائة وخمسين عاماً داعياً مذكراً، ناصحاً. ولكنه لم ير إلا آذاناً صُمَّاً، وقلُوباً غلفاً، وعقولاً متحجّرة، لقد كانت قلوبهم أيبس من الصخر وأقسى من الحديد، وقد قابلوا الإحسان بالإساءة، واللطف بالشدة، ومالوا عليه بالضرب والأذى وهو لا يفتأ يقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون". روى المفسرون أن نوحاً ـ عليه السلام ـ كان يأتي قومه فيدعوهم إلى الله، فيجتمعون عليه ويضربونه الضرب المبرح، ويخنقونه حتى يغشى عليه ثم يلفونه في حصير ويرمون به في الطريق، ويقولون إنه سيموت بعد هذا اليوم، فيعيد الله سبحانه وتعالى إليه قوته فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله فيفعلون به مثل ذلك، وهكذا بقي يؤذى ويعذّب، وهو مع ذلك صابراً لا يدعو على قومه بالعذاب وإنما كان يؤمل فيهم أو في أبنائهم الخير والصلاح ويقول: لعل الله يخرج من أصلابهم من يستجيب لدعوتي ويؤمن

بالله وكان كلما انقرض جيل جاء من بعده أخبث وألعن، فقد كانوا يوصون أبناءهم بعدم الإيمان به، وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل: يا بنيَّ إحذر لا يغرنك عن دينك وآلهتك" ولهذا دعى عليهم نوح ـ عليه السلام ـ بعد أن يئس من إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿**وَقَالَ نُوْحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِيْنَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوْا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾، فكان بعد ذلك الطوفان. روي عن ابن مسعود أنه قال: كأني أنظر إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه حتى أدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"(٥٧).

الأساليب التي استعملها في دعوته:

هي مجموعة الطرق العملية التي اتبعها في عرض دعوته على قومه، والتي تتمثل في قوله تعالى على لسان نوح ـ عليه السلام: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّيْ دَعَوْتُ قَوْمِيْ لَيْلاً وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيْ إِلاَّ فِرَارًا * وَإِنِّيْ كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوْآ أَصَابِعَهُمْ فِيْ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوْا وَاسْتَكْبَرُوْا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّيْ دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّيْ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوْا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيْنَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾(٥٨).

ويمكن إيجاز أساليب نوح ـ عليه السلام ـ في الدعوة بالتالي:

١) **الأسلوب الأوّل:** الدعوة بالليل والنهار: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّيْ دَعَوْتُ قَوْمِيْ لَيْلاً وَنَهَارًا**﴾. دعاهم إلى الإيمان بالله وطاعته بالليل والنهار من غير كلل ولا ملل ثم أخبر عن موقفهم من دعوته فقال: ﴿**فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيْ إِلاَّ فِرَارًا**﴾ أي فلم يزدهم دعائي لهم إلى الإيمان إلا هرباً وبعداً عن الحق وإعراضاً عنه. ثم وصف إعراضهم فقال: ﴿**وَإِنِّيْ كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوْآ أَصَابِعَهُمْ فِيْ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوْا وَاسْتَكْبَرُوْا اسْتِكْبَارًا**﴾: أي كلما دعوتهم إلى وحدانية الله والعمل بطاعته ليكون سبباً في مغفرة ذنوبهم ﴿**جَعَلُوْآ أَصَابِعَهُمْ فِيْ آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ**﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي ﴿**وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ**﴾ أي غطوا رؤوسهم ووجوههم بثيابهم لئلا يسمعوا كلامي أو يروني. قال في **البحر**: "والظاهر أن ذلك حقيقة، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتغطوا بثيابهم حتى ينظروا إليه، كراهية وتبغضاً من سماع النصيحة ورؤية الناصح، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عمَّا دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سدّ سمعه ومنع بصره(٥٩).

ثم وصف شدة إعراضهم عن الدعوة فقال: ﴿ **وَأَصَرُّوْا وَاسْتَكْبَرُوْا اسْتِكْبَارًا** ﴾ أي استمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكباراً عظيماً وفي هذا دلالة على فرط عنادهم وغلوهم في الضلال.

٢) **الأسلوب الثاني** ﴿ **ثُمَّ إِنِّيْ دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا** ﴾.

أ) الدعوة علناً على رؤوس الأشهاد دون خوف أو تحفظ.

ب) الدعوة سرّاً حيث يَصْلُحُ الإسرارُ.

ج) المزاوجة بين الإعلان والأسرار فكان يعلن لهم الدعوة حيث يَصْلُحُ الإعلانُ ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الأسرار. قال تعالى على لسان نوح ـ عليه السلام: ﴿ **ثُمَّ إِنِّيْ أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا** ﴾ أي أخبرتهم سراً وعلناً، خفية وجهراً أي سلكت معهم كل طريق في الدعوة، قال المفسرون: "والعطف بثُمَّ يشعر بأن الإعلان والإسرار الآخرين كانا طريقة ثالثة سلكها نوح في الدعوة، غير طريقة السر المحضة وغير طريقة الجهر المحضة، فكان في الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الأسرار(٦٠).

الأسلوب الثالث: الترغيب في طاعة الله ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوْا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيْنَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ﴾.

بيّن لهم نوح ـ عليه السلام ـ أن الإيمان والتوبة سبب في غفران الذنوب وإنزال المطر، والإمداد، بالأموال والأولاد والخيرات، فقد أطعمهم نوح ـ عليه السلام ـ بالحصول على بركات الأرض إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن.

الأسلوب الرابع: وهو أسلوب إقامة الحجج عليهم لإبطال شركهم وإقامة علم التوحيد في قلوبهم، وقد تقدم شرح هذا الأسلوب.

بيان صبره وشدة عزمه في تبليغ دعوته:

الصبر نصف الإيمان وقد أثنى الله تعالى على الصابرين، وخاطب رسوله قائلاً له ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾(٦١). وهو من لوازم بقاء الإنسان وسيره في الحياة وبلوغ ما يريد وأكثر ما يحتاجه الدعاة لأنهم يعملون في ميدانين ميدان داخل النفس: يجاهدونها

ويحملونها على الطاعة، ويمنعونها عن المعصية. وميدان خارج النفس؛ وهو ميدان الدعوة ومخاطبة الناس في موضوعها وقد غلبت هذه الصفة على نوح عليه السلام حيث ظهرت:

أ) قوة عزيمته في الدعوة وصبره على الأذى الذي لحق به، فقد ضرب لنا مثلاً على قوة العزيمة ومضائها واستمرارها عبر دعوته التي استمرت ألف سنة إلا خمسين عاماً دون أن تهن له إرادة أو تتزعزع له عقيدة، أو يصاب بإحباط أو يأس، فقد دعا قومه في الليل والنهار وبالسر والعلن ولكن هؤلاء القوم رفضوا دعوته جملة وتفصيلاً حتى أنهم رفضوا الاستماع والنظر وهذا نهاية الإعراض عنه والإيذاء لشعوره.

ب) صبره على التهديد والوعيد الذي وجه إليه حيث تلقى هذا التهديد بشجاعة، فلم يهن، ولم بنثني عن دعوته، وعن إبداء النصح لقومه، واستمع إلى القرآن وهو يصور لنا موقف قوم نوح ـ عليه السلام ـ: قال تعالى: ﴿**لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُوْنَنَّ مِنَ الْمَرْجُوْمِيْنَ**﴾. ولكن نوحاً ـ عليه السلام ـ مضى بدعوته، ولم يتراجع أمام هذه التهديدات بل لجأ إلى ربه ﴿**قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِيْ كَذَّبُوْنِ * فَافْتَحْ بَيْنِيْ وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِيْ وَمَن مَّعِيْ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ**﴾(٦٢).

ج) صبره على أذاهم عندما خاطبوه ووصفوه بالجنون فقالوا: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوْا بِهِ حَتَّى حِيْنٍ**﴾(٦٣).

د) صبره على سخريتهم عندما كان يصنع السفينة حيث كانوا يقولون له عندما يمرون عليه يا نوح قد كنت بالأمس نبيّاً واليوم قد صرت نجّاراً ويجتمعون عليه وهم يضحكون وهو جاد عليه السلام في علمه قال تعالى مصوراً لنا هذا الموقف: ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوْا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوْا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُوْنَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ مَنْ يَأْتِيْهِ عَذَابٌ يُخْزِيْهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيْمٌ**﴾(٦٤).

في هذه الأجواء المظلمة تظهر حقيقة الداعية الصادق المخلص الصابر في دعوته الذي لم يبال بتهديدات قومه بل أجابهم بقوله: يا قوم إن كان وجودي فيكم لتبليغ رسالة ربي قد أصبح شديداً عليكم فإني مستمر مثابر على دعوتي، متوكل على الله، فاحزموا أمركم وافعلوا بي ما بدا لكم، مستعينين بشركائكم الذين يومنون بالآلهة الباطلة ولا يكن في عدائكم لي أي خفاء بل كاشفوني به ولا تمهلوني فيما تريدون بي من سوء، وإن كنتم تقْدِرُون على إيذائي، ولكنكم لن تقدروا على تنفيذ غايتكم لأن ربي يرعاني برحمته ويكلؤني بعزّته وعنايته قال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوْحٍ إِذْ قَالَ**

لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِيْ وَتَذْكِيْرِيْ بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوْآ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُـمَّ اقْضُوْآ إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُوْنِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ﴾(٦٥).

إن مكابدة هذه الأجواء ألف سنة إلا خمسين عاماً أمر لا يطيقه إلا من أوتي عزماً وثباتاً وسعة صدر كنوح عليه السلام الذي استحق أن يحظى بعد مرتبة النبوّة السامية بدرجة أولي العزم من الرسل.

الأساليب التي تحوَّلوا إليها في مواجهة نوح ـ عليه السلام:

نستطيع إجمال الأساليب التي تحول إليها قوم نوح ـ عليه السلام ـ في الأمور التالية:

١) التحدي لنوح.

٢) الزجر والتهديد له.

٣) تحذير الرعاع منه ومن دعوته.

٤) الكيد والمكر له.

أما التحدي: فقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: **﴿قَالُوْا يَا نُوْحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ﴾**(٦٦). أي قد خاصمتنا وأردت صرفنا عن آرائنا بالحجاج وأردنا صرفك عن رأيك بمثل ذلك، ولكنك أطلت في جدالك وكلامك حتى زدت عن مقدار الكفاية مما سبب تضجّرنا منك دون أن تصح دعواك عندنا(٦٧). فإن كنت لا تريد الكف عما أنت عليه **﴿فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ﴾** ويأتي الجواب من نوح ـ عليه السلام ـ فيقول لقومه: **﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيْكُمْ بِهِ اللّهُ إِنْ شَآءَ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ * وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيْ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللّهُ يُرِيْدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾**(٦٨).

تضمَّن الشق الأول من الجواب: "إن العذاب ليس موكلاً إليَّ ولا هو مما يدخل تحت قدرتي وإنما يتولاه الله الذي أرسلني وكفرتم به وعصيتموه لا غيره وهو الذي يأتيكم به إن شاء عاجلاً أو آجلاً"(٦٩). وتضمن الشق الثاني من الجواب إزالة الوهم الحاصل لديهم من أن جداله كلام بلا طائل أو أنه خصم مجادل لمنافستهم أو انتزاع ما بأيديهم أو لتصدّر الزعامة عليهم، أو غير ذلك مما يمكن أن يتوهموه فقال: **﴿وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيْ﴾**. وذلك بيان لما سبق منه أنه ليس بطريق الخصام والجدال بل

بطريق النصيحة والشفقة عليهم. وفي هذا دلالة على أن نوحاً ـ عليه السلام ـ كان ناصحاً لهم وليس مخاصماً ولا مجادلاً كما يظنون.

وأما التهديد والزجر: فينجلي في قولهم له: ﴿**لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوْحُ لَتَكُوْنَنَّ مِنَ الْمَرْجُوْمِيْنَ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوْحٍ فَكَذَّبُوْا عَبْدَنَا وَقَالُوْا مَجْنُوْنٌ وَازْدُجِرَ**﴾. أي أنهم انتهروه وزجروه بشدة ليردعوه عن الاستمرار في دعوته وذلك بالسب والشتم وتواعدوه بأنواع الأذى حتى وصل إلى حد التهديد بالقتل قال تعالى: ﴿**لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوْحُ لَتَكُوْنَنَّ مِنَ الْمَرْجُوْمِيْنَ**﴾. ثم يأتي إليهم جواب الداعية الصادق الموقن بنصر الله ورعايته والذي تمثل بقوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوْحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِيْ وَتَذْكِيْرِيْ بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوْآ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوْآ إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُوْنِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ**﴾(٧٠). وفي هذا الجواب بيان لعلو درجة إيمان نوح ـ عليه السلام ـ وقوة ثقته بالله، وشجاعته في مجابهة أعداء الدعوة.

٣) تحذير السادة للرعاع من إتباع دعوة نوح ـ عليه السلام ـ ويتجلى هذا الموقف في قوله تعالى على لسان نوح ـ عليه السلام: ﴿**قَالَ نُوْحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِيْ وَاتَّبَعُوْا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا * وَمَكَرُوْا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوْا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوْثَ وَيَعُوْقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا**﴾(٧١).

لقد أعرض السادة أنفسهم عن دعوة نوح ـ عليه السلام ـ وحرضوا غيرهم وحذروهم من إتباعه وحثوهم على التمسك بألهتهم.

الكيد والمكر بنوح ـ عليه السلام:

ولم يكتف الملأ بالعصيان وإنما مكروا مكراً كباراً. والمكر هنا: إما أن يكون صرف نوح ـ عليه السلام ـ عن دعوته وتبليغها للناس وتحريش العامة على إيذائه وإما أن يكون بصرف الناس عنها ويوضح قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوْا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا**﴾، وكلا الأمرين عظيم سواء صد الناس عن الحق أم التآمر والتحريش على قتل نبيّ من أنبياء الله يبلّغ دين الله للناس.

النهاية، والفصل بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه:

ولم يكن بعد هذه المعاناة الطويلة ـ وقد استبان منهم الزيادة على الكفر والإصرار عليه بالتآمر على دعوة الإيمان والعمل على استئصالها ـ إلا أن تأتي سنة الله القاضية بإهلاك الظالمين وإنجاء

المؤمنين، ففزع نوح إلى العزيز الحكيم بالتضرّع والدعاء، فقال تعالى: ﴿**وَقَالَ نُوْحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِيْنَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوْآ إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾. وقال تعالى: ﴿**رَبِّ إِنَّ قَوْمِيْ كَذَّبُوْنِ * فَافْتَحْ بَيْنِيْ وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِيْ وَمَن مَّعِيْ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ* فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُوْنِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِيْنَ**﴾(٧٢). وقال أيضاً: ﴿**رَبِّ انْصُرْنِيْ بِمَا كَذَّبُوْنِ**﴾(٧٣). وقال أيضاً: ﴿**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّيْ مَغْلُوْبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَآء بِمَآء مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوْنًا فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِيْ بِأَعْيُنِنَا جَزَآء لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِيْ وَنُذُرِ**﴾(٧٤).

لقد نزل العذاب بعد أن رفع الدعاء إلى الله بعد أن أعلمه الله أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، قال تعالى: ﴿**وَأُوْحِيَ إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ**﴾(٧٥).

نعم عندما يئس نوح ـ عليه السلام ـ من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة تغضب الله عليهم، فلبّى الله دعوته وأجاب طلبه قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَادَانَا نُوْحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيْبُوْنَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيْمِ**﴾(٧٦). وقال تعالى: ﴿**وَنُوْحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيْمِ**﴾(٧٧). وقال تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِيْ كَذَّبُوْنِ * فَافْتَحْ بَيْنِيْ وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِيْ وَمَن مَّعِيْ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ**﴾(٧٨). ويصدر الأمر الإلهي إلى نوح ـ عليه السلام ـ بصناعة السفينة قال تعالى: ﴿**فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**﴾(٧٩). ثم قال له ﴿**فَإِذَا جَآء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّوْرُ فَاسْلُكْ فِيْهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِيْ فِي الَّذِيْنَ ظَلَمُوْآ إِنَّهُم مُّغْرَقُوْنَ**﴾(٨٠). لقد صدر إليه هذا الأمر العظيم من الرب العظيم أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات، وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله أي أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم، أي إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد، وأُمِر لأَنْ لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد.

ويأمر الله نوحاً بحمده على ما سخر له من هذه السفينة قال تعالى: ﴿**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيْ نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِيْ مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِيْنَ**﴾(٨١). ويبيّن المولى سبب العذاب لهؤلاء القوم فيقول: ﴿**مِمَّا خَطِيْئَاتِهِمْ أُغْرِقُوْا فَأُدْخِلُوْا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوْا لَهُم مِّنْ دُوْنِ اللَّهِ أَنْصَارًا**﴾(٨٢). وبعد أن تمّ العذاب صدر الأمر الإلهي: ﴿**وَقِيْلَ يَآ أَرْضُ ابْلَعِيْ مَآءَكِ وَيَا سَمَآءُ أَقْلِعِيْ وَغِيْضَ الْمَآء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُوْدِيِّ وَقِيْلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ**﴾(٨٣). ثم صدر الأمر إلى نوح بالهبوط من السفينة. ﴿**قِيْلَ يَا نُوْحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيْمٌ**﴾(٨٤). لقد استجاب الله لنوح ـ عليه السلام فتحققت سنّته بإنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين. قال تعالى: ﴿**وَنُوْحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيْمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوْا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِيْنَ**﴾(٨٥). وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿**وَلَقَدْ نَادَانَا نُوْحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيْبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيْمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِيْنَ * سَلاَمٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِيْنَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِيْنَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِيْنَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِيْنَ**﴾(٨٦).

الخاتمة:

وفي الختام أودّ أن أبيّن ما يلي:

١- نوح ـ عليه السلام ـ هو أول رسول أرسل إلى البشر وأنه من أولى العزم الذين تحملوا الشدائد والصعاب في دعوتهم.

٢- طول مكثه في دعوة قومه حيث أشار القرآن إلى أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

٣- عناد قومه وإصرارهم على الكفر ﴿**وَقَالُوْا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوْثَ وَيَعُوْقَ وَنَسْرًا**﴾.

٤- سنة الله في الكون في بيان نهاية المؤمنين وعاقبة الكافرين، حيث أن الله أنجى نوحاً ـ عليه السلام ـ وأهلك قومه فكانوا عبرة لمن بعدهم.

والحمد لله رب العالمين.

هـوامش

١- سورة العنكبوت، الآية: ١٤-١٥.

٢- **قصص الأنبياء**، ابن كثير، تحقيق وتعليق عبد القادر أحمد عطا، المكتبة الإسلامية، بيروت، ج ١، ص١٠٤.

٣- سورة الإسراء، الآية: ١٧.

٤- سورة المؤمنون، الآية: ٣١.

٥- سورة مريم، الآية: ٤٧ و ٩٨.

٦- متفق عليه/ **اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان**، محمد فؤاد عبد الباقي، ج ٤٨/١، دار الحديث.

٧- **النبوة والأنبياء**، محمد علي الصابوني، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، (د ـ م).

٨- سورة الأعراف، الآية: ٥٩-٦٤.

٩- سورة نوح من أولها.

١٠- سورة نوح، الآيتان: ٢٣-٢٤.

١١- سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.

١٢- سورة الشعراء، الآية: ١١١.

١٣- سورة يونس، الآية: ٧١.

١٤- سورة العنكبوت، الآيتان: ١٤-١٥.

١٥- سورة نوح، الآيات: ١٢-١٦.

١٦- سورة القمر، الآيات: ٩-١٦.

١٧- **تفسير الطبري**، للإمام أبي جعفر الطبري، ضبط وتعليق محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١١٧/٢٩.

١٨- سورة نوح، الآية: ٢١.

١٩- سورة العنكبوت، الآيتان: ١٤-١٥.

٢٠- سورة المؤمنون، الآيتان: ٢٣-٢٤.

٢١- سورة هود، الآيات: ٢٤-٢٧.

٢٢- سورة الأعراف، الآية: ٦٣.

٢٣- على حاشية الشهاب، **تفسير البيضاوي**، دار صادر بيروت، ج ٤، ص ١٤٩.

٢٤- **روح المعاني**، للألوسي، ادارة الطباعة المنيرية، مصر، درب الاتراك.

٢٥- سورة ص ، الآيتان: ٧١-٧٢.

٢٦- **شرح عبد السلام علي جوهرة التوحيد**، مكتبة القاهرة، ص ١٧٩-١٨٢.

٢٧- سورة هود، الآية: ٢٨.

٢٨- سورة الأعراف، الآيتان: ٦٠-٦١.

٢٩- **التفسير الكبير**، للفخر الرازي، دار الفكر، ج ١٥٦/١٤-١٥٧.

٣٠- سورة القمر، الآية: ٩.

٣١- سورة المؤمنون، الآية: ٢٥.

٣٢- **مفردات القرآن**، للراغب الأصفهاني، تحقيق نديم مَرَعشلي، مكتبة المرتضوية، ص ٩٦-٩٧.

٣٣- سورة هود، الآية: ٣٢.

٣٤- سورة هود، الآية: ٢٧.

٣٥- سورة الشعراء، الآية: ١٠٥.

٣٦- سورة الأعراف، الآية: ٦٤.

٣٧- سورة يونس، الآية: ٨٣.

٣٨- سورة هود، الآية: ٣٥.

٣٩- سورة يونس، الآية: ٧٢.

٤٠- سورة هود، الآية: ٢٩.

٤١- سورة الشعراء، الآية: ١٠٩.

٤٢- سورة هود، الآية: ٢٧.

٤٣- سورة الشعراء، الآية: ١١١.

٤٤- **روح المعاني**، للألوسي، ج ٣٣١/١٢.

٤٥- **تفسير القرطبي**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، ج ٣٠٢/١٨، و **تفسير الخازن بهامشه تفسير البغوي**، لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي، ج ٧، ص ١٥٤.

٤٦- **تفسير الآلوسي**، ج ١١٦/٢٩.

٤٧- **تفسير ابن كثير**، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، الطبعة الخامسة، ١٤٠٠هـ، ج ٣، ص ٥٥٣.

٤٨- **صفوة التفاسير**، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ج ٤٥٢/٣.

٤٩- **شرح عبد السلام علي الجوهرة**، عبد السلام بن إبراهيم المالكي اللقاني، ص ٢٠٩.

٥٠- **صفوة التفاسير**، للصابوني، ج ٣/ ٤٥٢-٤٥٣.

٥١- **البحر المحيط**، أبو حيان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج ٨/ ٣٤٠، **روح المعاني**، للألوسي، ج ٢٩/ ١٢٠.

٥٢- سورة الروم، الآيتان: ٢٧-٢٨.

٥٣- سورة يس، الآيتان: ٧٨-٧٩.

٥٤- سورة نوح، الآية: ١٩.

٥٥- سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

٥٦- سورة هود، الآية: ٢٦.

٥٧- **صفوة التفاسير**، للصابوني، ج ٣/ ٤٥٥، **والنبوة والأنبياء**، محمد علي الصابوني، ص ١٥٠-١٥١.

٥٨- سورة نوح، الآيات: ٤-١٢.

٥٩- **البحر المحيط**، ج ٨/ ٣٣٨.

٦٠- **صفوة التفاسير**، محمد علي الصابوني، ج ٣/ ٤٥١-٤٥٢.

٦١- سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

٦٢- سورة الشعراء، الآية: ١١٨.

٦٣- سورة المؤمنون، الآية: ٢٥.

٦٤- سورة هود، الآيتان: ٣٨-٣٩.

٦٥- سورة يونس، الآيتان: ٧١- ٧٢.

٦٦- سورة هود، الآية: ٣٢.

٦٧- **تفسير أبي السعود**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ـ ت).

٦٨- سورة هود، الآية: ٣٤.

٦٩- **روح المعاني**، للألوسي، ج ١٢/ ٣٤١.

٧٠- سورة يونس، الآيتان: ٧١-٧٢.

٧١- سورة نوح، الآيات: ٢١-٢٤.

٧٢- سورة الشعراء، الآيات: ١١٧-١٢٠.

٧٣- سورة المؤمنون، الآية: ٢٦.

٧٤- سورة القمر، الآيات: ٩ -١٦.

٧٥- سورة هود، الآية: ٣٦.

٧٦- سورة الصافات، الآيتان: ٧٥-٧٦.

٧٧- سورة الأنبياء، الآية: ٧٦.

٧٨- سورة الشعراء، الآيتان: ١١٧-١١٨.

٧٩- سورة المؤمنون، الآيتان: ٢٦-٢٧.

٨٠- سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

٨١- سورة المؤمنون، الآيتان: ٢٨-٢٩.

٨٢- سورة نوح، الآية: ٢٥.

٨٣- سورة هود، الآية: ٤٤.

٨٤- سورة هود، الآية: ٤٨.

٨٥- سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٦-٧٧.

٨٦- سورة الصافات، الآيات: ٧٥-٨٢.

* * * *